عناصر السيرةالذاتيّة في رواية
"موسم الهجْرة إلى الشّمال " للطيب صالح

د/عبد الرحمان بن يطو

جامعة محمد بوضياف . المسيلة

benyettouabr60@gmail.com

الملخص :

تُشكّل شخصية مصطفى سعيد بطل رواية " موسم الهجرة إلى الشّمال " للروائي السوداني الطيب صالح ،إشكاليّة نقديّة حقيقيّة في أحداث الرواية ، لأنّ بطلها عرف بناء فنيّا نمطيّا ونموا تصاعديّا من خلال تمثّلات المسار الخطيّ لحركة التّرسيمة البيانية للشّخصية في الرواية ؛إذْ انطلقت في أوّل مشوارها من الدرجة الصفر وراحت تتدرّج في سلّم الحياة نحو الأعلى إلى أن وصلت بها سياقات الأحداث الروائية إلى القمّة ثمّ العودة بها مرّة أخرى إلى البدايات الأولى .أي من تلميذ بالمدرسة الابتدائيّة في إحدى القرى جنوب السّودان إلى أن صارت هذه الشخصية تتبوأ منصب أستاذ جامعيّ في الاقتصاد في إحدى الجامعات المرموقة في بريطانيا . بعد مرورها بالقاهرة ثمّ العودة إلى الوطن الأم ليموت غرقا في نهر النيل في ظروف غامضة ، ترسم هذه الإحداثيّة التي تتمحور حولها الرواية سؤالا إشكاليّا له شقان : هل مات مصطفى سعيد عقابا لخروجه عن النّسق الثقافيّ والاجتماعيّ الذي ينتسب إليه ؟أو يُحتمل أنّ الراوي قتله عمدا لينقذه من جرائره في الحياة ؟

مات بطل رواية " موسم الهجرة إلى الشّمال " وهو يحمل سرّه معه رغم ما قيل عن شخصه من مزاعم ، فمن خلال هذه الدّراسة نحاول جمع أجزاء الصّورة المُتشظية والمتواريّة بين ثنايا الرواية من أجل إعادة بنائها والتّعرّف على صورة مصطفى سعيد المُثيرة للجدل وعن دوافعه التي أودت به إلى هذه النهاية المشؤومة ، التي ابتكرتها مُخيّلة الروائيّ العالميّ الطيب صالح ، ومهما تكن المقاربة التي نسعى إليها ، فإنّ الرواية في تقديرنا تشكّل لحظة تقاطع حسّاسة بين منظومتيْن ثقافيتين متقاطبتيْن هما : الغرب بعقلانيته الماديّة الشّرسة ،والشّرق بروحانيته المسالمة .

الكلمات المفتاحيّة :

الشّخصية ،الإحداثيّة ، النّسق ، المُتخيّل ، المتشظية ، المُتقاطبة .

التّرجمة :

Abstract :

The character of Mustafa Said, the protagonist of the novel "Migration Season to the North" by the Sudanese novelist Tayeb Saleh, is a real critical issue in the events of the novel, because his protagonist knew a typical artistic construction and grew exponentially through the representations of a linear movement in the novel, from zero and began to rise until it reached the climax of the narration , then returned back to the first beginnings ; from a student at a school of a deprived village in Sudan until he became a respected professor in a great British university after having passed by the Cairo and then returning home to die drowning in the Nile River under mysterious circumstances. This narrative poses two problematic questions: Did Mustafa Said die as a punishment for quitting the cultural and social context to which he

belongs or the novelist burried him out of sunlight purposefully to liberate him ? The protagonist of the novel "Migration Season to the North" died with his secret despite the claims of his character. In this study, we try to gather and figure out the fragments of the implicit picture and try to reconsruct the picture of Said , get closer to his persona to find out the reasons behind such a tragic ending. whatever the approach we seek, the novel in our estimation is a sensitive moment of intersection between two contradictory cultural systems: the West with its fierce material rationality and the Orient with its peaceful spirituality.

key words : character , pattern, fragmented, intersecting ,layout

العنوان : إنّ القول الرواية تُقرأ من عنوانها يُراد به العلاقة الاستقطابيّة التي تربط بين المتن وعنوانه ، فالعنوان لحظة انجذاب القارئ نحو النّص ، وأي فشل قد يعتري الكاتب في صياغة عنوانه هو بالتأكيد فشل في العمل كلّه فكم من نصوص جميلة راحت ضحية عناوينها الفاشلة فالإمعان في ابتكار عناوين ذات نبض شعريّ مَهمَّة يضطلع بها المبدع أولا وأخيرا ويتحمّل عواقبها ، وكلّما حمل العنوان كثافة لغويّة وسُمكا دلاليّا زادت مردوديته الشّعريّه ، ومن هنا جاء الاهتمام بالعنوان في السياق الشعرية عند الناقد الفرنسي جيرار جينيت ؛ إذْ خصّه بفصل كامل في كتابه (عتبات) (1) ودرسه من عدّة جوانب ، موقعيّا ،وتركيبيا ،وجماليّا ،وتجاريّا ،ودلاليّا (2)

و يتأسّس عنوان رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " للروائي السوداني الطيب صالح على ثنائيّة الغياب والحضور؛ بحيث ذكر الكاتب الاتّجاه نحو الشمال ولكن غيّب الجهة المُقابلة التي انطلق منها وهي (الجنوب) ، والجنوب في الجغرافيا السياسيّة من العالم هي الدول التي ترزح تحت وطأة التّخلّف والتّبعيّة والخارجة حديثا من دائرة الاستعمار ، بينما الشمال يمثّل التّفوّق والحضارة والتّقدم الصناعي والتّكنولوجيّ ، إذن حركة السّهم تتّجه من الجنوب إلى الشمال من منطقة التخلّف إلى منطقة التّقدم والازدهار ،من الدّول المستعمَرة إلى الدول المستعمِرة من إفريقيا السوداء إلى أوروبا البيضاء من الانغلاق إلى الانفتاح ومن العدم إلى الوجود ، فعنوان الرواية الحقيقي هو " موسم الهجرة (من الجنوب) إلى الشمال " ، قد تكون اللغة العربيّة قد أتاحت للكاتب فرصة صياغة العنوان بهذه الطريقة من خلال حذف ما يمكن الاستغناء عنه وعدم الحاجة إليه دون إخلال بالسياق ، وهذا متاح عادة في قواعد اللغة العربيّة كقول القائل مثلا : " كلّ عام وأنتم بخير " فالمحذوف هنا في حكم الغيب وهو المقصود به (العام القادم) ما دام الأمر كذلك فيستوجب حذفه دون إخلال بالمعنى لأنّ الأصل هكذا " كلّ عام (...) وأنتم بخير " أي كلّ عام(يُقدم)ولكن بشرط أن يكون متوافقا مع التّخريج الدّلالي الذي يقتضيه معنى السياق .

يضاف إلى ذلك أنّ الكاتب ذكر حرف الجر (إلى) و من معانيه نهاية الغاية دون أن يذكر ما يسبقه وهو حرف الجر (من) و من معانيه بداية الغاية كقولنا : " ذهبت من ... إلى ... " وهذا ما يوضّحه قوله تعالى في سورة (الإسراء) " سبحان الذي أسرى بعبده ليلا **من** المسجد الحرام **إلى** المسجد الأقصى " (3) أمّا علاقة العنوان بمتنه يمكن أن نتمثّلها من خلال حركة الشّخصية المركزيّة للرواية وهو مصطفى سعيد ،التي ابتكر لها الروائي الطيّب صالح نهاية تتوافق ونسق الثقافة العربية الشرقيّة المحافظة ؛ هذه الشخصية التي بدت حاضرة بقوّة وانتهت نهاية

غامضة ، بمعنى آخر اختار لها الكاتب غيابا قسريّا وبحكم أنّ هذه الشخصيّة متّصلة بالجنوب السوداني فشطب لفظ (الجنوب) من العنوان تماما كما شطب أو سحب الشخصية الجنوبيّة المتمثلة في مصطفى سعيد من أحداث الرواية ،سواء تعلّق الأمر بدواعيّ أخلاقيّة أو بذريعة فنيّة . وهذا ما أفصح عنه البطل نفسه الذي اختزل الجنوب في شخصه " وأنا جنوب يحنّ إلى الشمال والصّقيع " (4) إذن لو تمعنّا أكثر لاكتشفنا أنّ جوهر عنوان الرواية هو " بداية و نهاية " والواو التي تفصل بين البداية (و)النهاية ليست واو العطف المتعارف عليها ، بل هي واو الاهتمام إذْ من غير المنطق أن تُعطف البداية على النهاية والمسافة بينهما شاسعة وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم في كذا موقع منها قوله تعالى : " هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكلّ شيء عليم " (5) ، و لا ندّعي إذا قلنا إنّ البطل(مصطفى سعيد) في الرواية هو الكاتب نفسه الطيب الصالح لأنّ كلتا الشخصيتين الواقعية والمتخيلة من إحدى القرى بحنوب السودان الفقير وأنّ كلا منهما سافر إلى بريطانيا وتعلّم هناك وأنّ كلّ واحد منهما تزوّج من سيّدة بريطانيّة ذات بشرة بيضاء و عاد في الأخير إلى أرض الوطن ليموت مع الفارق في بعض التّفاصيل التي لا تؤثّر في المسار العام للحياة ، مع العلم أنّه لا يمكن بأيّ حال أن ننتظر من المبدع أن يقول كلّ شيء عن حياته ؛ فهذا يخلّ بتقاليد الكتابة الإبداعيّة فالعمل الروائي الحقيقيّ هو الذي يحوّل ما هو واقعي إلى ما هو تخييليّ وإلاّ صار عملا تسجيليّا لا يرقى إلى مستوى الإبداع . وظاهرة حضور الكاتب متلبسا بين ثنايا شخصياته الروائية موجودة في كثير من أعمال الروائيين العالميين ونذكر هنا الروائي نجيب محفوظ (1911 . 2006)، إذْ يمكن أن نعثر على نتف من سيرته الذاتية من خلال بعض المؤشرات الدّالة في (الثلاثية) مثلا ،كالمكان التي تجري فيه أحداث الرواية ، وهو حي الجمالية التاريخيّ الذي ولد فيه الكاتب وترعرع و الأم أمينة زوجة السيد أحمد عبد الجواد ،هو نفس الاسم التي تحمله أم الكاتب في الواقع وأعطاها مواصفات الأم المصرية المثالية في ذلك الوقت ، وشخصية كمال

أصغر الإخوة وطالب ناجح ورفض التوجه إلى الدراسة في الحقوق واختار بمحض إرادته الفلسفة عن رغبة وهو ما ينطبق تماما على نجيب محفوظ نفسه فهو أصغر إخوته واختار الدراسة الجامعيّة في قسم الفلسفة وليس غريبا أن يكون الاسم الكامل لوالد نجيب محفوظ ينتهي باسم (أحمد) أيْ نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد باشا ، وهو الاسم الذي تحمله الشخصيّة المركزية في الثلاثية(أحمد عبد الجواد) الذي يمثل والد كمال .

ومن خلال بعض المواصفات التي تطبع شخصية مصطفى سعيد في الرواية يتبيّن لنا بعض التّماثل الأيقوني بين مركّبات شخصيتيْ كلّ من مصطفى سعيد و الطيب صالح لدرجة القول أنّ مصطفى سعيد هو الطيب صالح نفسه ،هذا الرأي يسانده الناقد المصري رجاء النقاش الذي اعتبر أنّ مصطفى سعيد في رواية " موسم الهجرة إلى الشمال " هو الكاتب نفسه , رغم أنّ هذا الرأي يتعارض مع ما ذهبت إليه الباحثة البريطانية في الأدب الإفريقي جريزلدا الطيب ؛إذْ تقول : " وندعي من طرفنا، أن مصطفى سعيد بطل رواية (موسم الهجرة إلى الشمال) ليس هو الطيب صالح، ولا يستعير جانباً مهماً من سيرته " (6) ، ولا تسلم الشّخصية المركزيّة من سطوة الكاتب الذي يحاول من خلالها أن يمرّر مشروعه الفكريّ والأيديولوجيّ بطريقة ذكيّة مموّهة للقارئ " وتكون الشّخصية المحوريّة أو البطلة عادة ، هي الممثل لشخص الكاتب النّفسي والنّاطق بلسانه والمعبّر عن وعيه الاجتماعيّ ، حيث تدخل هذه الشخصيّة في نزاع أفعالي وكلامي مع الشخصيات الأخرى لتُعرب عن تأمّلاتها في الإنسان والحياة إضافة إلى دخولها في جدل نفسيّ حادّ تسائل في ذاتها باستمرار رامية إلى نقد آرائها وتصحيح أخطائها وإعادة صياغة خواطرها . " (7)

و حاول الروائي الطيب صالح أن يرفع هذا الحرج عن المتلقي العربي ويدلي بدلوه قائلا : " أنا لا أعتقد بأن مصطفى سعيد هو الشخصية الرئيسية في الرواية،

فالمشكلة هي مشكلة الراوي، و مصطفى سعيد جانب من جوانب مشكلة الراوي، و لكن هذه الشخصية استأثرت بالرواية كلّها " .(8)

ومهما يكن فإنّ للقراءة النّقديّة فاعليتها وتخريجها الذي يتناسب مع سياق الأحداث ، وهنا يحضرني موقف للروائي الفرنسي هنري دو بلزاك (1799 . 1850)؛ حين دخلت عليه زوجته يوما وهو واضع رأسه على مكتبه يبكي قائلة له : ما يبكيك ؟ فأجابها إنّ البطل قد مات ! بمعنى آخر أنّ الروائيّ الحقيقي هو من لا يتحكّم في أقدار شخصياته الروائيّة بل منطق الأحداث وصيرورتها وقانون السببيّة (causalité) ، هو من يصنع الحدث بما يتوافق مع المنطق البشريّ ، ومنذ البداية علينا أن نصدّق النّص ولا نصدّق النّاص . وهذا من باب البحث عن الشخصية الواقعية في المتخيل السّرديّ . ورغم ذلك نحاول من خلال هذه الورقة البحثيّة أن نلملم أجزاء الصورة لمعرفة الشّخصية الإشكاليّة المتوارية في النّص والتي يمثلها مصطفى سعيد ، بحيث أتقن الكاتب في صنعها نفسيّا واجتماعيّا وأخلاقيّا وفكريّا وحتى مزاجيّا ، فهو ولد بعد قرن من حملة نابليون بونابرت على مصر (1798) التي تشكّل السودان عمقها الإستراتيجي وتجمع بين البلدين الثقافة النّوبيّة العريقة التي تمتدّ جذورها في التاريخ وعبر جغرافية نهر النيل ،الذي يوحّد المنطقة . وكانت السودان لعهد قريب تابعة سياسيا وعسكريا لمصر أيام حكم عائلة محمد علي باشا . يضاف إلى ذلك أنّ السنة التي ولد فيها مصطفى سعيد كانت حدثا مميزا في تاريخ البلد "مصطفى سعيد من مواليد الخرطوم، 16 أغسطس 1898.. الأب متوفى، الأم فاطمة عبد الصادق" (9) ، فهذه السنة تصادف أيضا اجتياح القوات البريطانيّة بقيادة كتشنر الأراضي السودانيّة .ومن هنا يأخذ ميلاده منعرجا دلاليا آخر يضاف إلى بناء شخصيته ، عرف مصطفى ذلّ اليتم مبكّرا في حياته بفقدان السند المادي المتمثل في الوالد ، وبقيت علاقته مع أمّه علاقة وظيفيّة وبيولوجيّة لا أكثر ، " كانت كأنها شخص غريب جمعتني به الظروف صدفة في الطريق" (10) ، ورغم أنّ

الأقدار عوّضته كثيرا ومنحته بعض المهارات و الاستعدادات الفطريّة إلاّ أنّه يرى نفسه كشيء خال من أيّ روح تنبض بالقيم الإنسانيّة " مثل شيء مكور من المطاط تلقيه في الماء فلا يبتل، ترميه على الأرض فيقفز." (11) ، كان متفوّقا عن أقرانه في الدراسة سريع البداهة والحفظ قد لوحظ عنه ذلك ؛ فحين وصل إلى مستوى تعلّم اللغة الإنجليزية أظهر سرعة في تعلّمها وتفوّقا لا نظير له" ألغازا أخرى منها اللغة الإنجليزية" (12) ، ولمّا وقع عليه الاختيار ليغادر البلد إلى الدراسة بالقاهرة ؛ جاءت لحظة وداع أمّه وكأنها لا حدث ؛ تخلو من الروح العاطفيّة التي عادة ما تتّسم بها الأمومة المترعة بالعواطف الفياضة " لا دموع، و لا ضوضاء، مخلوقان سارا شطرا من الطريق معا، ثم سلك كل منهما سبيله" (13) ، وفي القاهرة المدينة التي تتّسم بكثير من مظاهر الحداثة الأوروبيّة وجد عائلة روبنسون في انتظاره ، وقد عانقته بحرارة مسز روبنسون ، قائلة : " لقد كان موزي (= مصطفى سعيد) أعز شخص بالنسبة لي و لزوجي" (14) ، إلاّ أنّ النظرة المتخفيّة لهذه الشخصيّة الناشئة تهيمن عليها علامة استفهام كبرى ، تمثل المحرّك الذي يحرّك الأحداث الروائية لاحقا، فهو لا يخلو من العقدة الشّهرياريّة التي اشتهرت بها السّرديّة العربيّة قديما، إلاّ أنّ الفارق بينها هو أنّ صورة شهرزاد هذه المرّة هي المرأة ذات الأصول الأوروبيّة الكولونياليّة وهو العربي الإفريقي المسلم الذي يريد أن يفترس الأنوثة البيضاء انتقاما من رجالها الذين جاؤوا يوما غزاة لبلده الآمنة المسالمة .

فكانت نزعته الذّكوريّة هي سلاحه الوحيد الذي يريد أن يشهره في وجه عدوّه بالأمس فـ " كان زير نساءٍ" (15) ، إذْ تمكّن أن يجمع بين أكثر من امرأة في آن واحد ،الأولى (آن همند) ابنة ضابط في سلاح المهندسين، أمّها من تنتسب إلى عائلة ثرية من مدينة ليفربول، و عمّتها زوجة لحد نواب البرلمان، عاشت (آن همند) طفولتها في مدرسة للراهبات، ثم التحقت بجامعة أكسفورد لدراسة اللغات الشرقية ،و كانت مترددة بين اعتناق الديانة البوذية أو الإسلام، استغلّ مصطفى سعيد شغفها نحو

الشرق من خلال بعض أشعار المجون لأبي نواس، لكنها في نهاية الأمر انتحرت بالغاز تاركة ورقة صغيرة باسم مصطفى سعيد فيها هذه العبارة" مستر سعيد لعنة الله عليك." (16) .

و (شيلا غرينود) امرأة " بسيطة حلوة المبسم، حلوة الحديث، أهلها قرويون من ضواحي (هِل) "(17) كانت تعمل خادمة في أحد المطاعم نهارا وتدرس ليلا " كانت ذكية تؤمن بأن المستقبل للطبقة العاملة، و أنه سيجيء يوم تنعدم فيه الفروق، و يصير الناس كلهم إخوة." (18)، أعطاها الكاتب انطباعا ماركسيّا ورغم ذلك كانت تنحدر من أسرة مشبّعة بالثقافة الأوروبيّة العنصرية؛ إذْ تقول لمصطفى " أمي ستجنّ، و أبي سيقتلني، إذا علما أنني أحبّ رجلا أسود، و لكنني لا أبالي" (19)

وقعت في حبّ مصطفى سعيد، رغم موقف أهلها المعارض لهذه العلاقة التي تربطها برجل ذي بشرة سوداء ، لكنّ للفتاة انجذاب خاص نحو السواد؛ فهو لون سحري و غامض بالنسبة لها و لكن في الأخير آلت الفتاة إلى الانتحار.

و (إيزابيلا سيمور) وهي أم لابنتين وزوجة طبيب جراح ناجح ، مواظبة على صلواتها في الكنيسة إذْ " تذهب للكنيسة صباح كل أحد بانتظام ، و تساهم في جمعيات البر" (20)، كانت نقطة ضعفها ولعها بالحياة في الأدغال الإفريقية، فتمكّن مصطفى سعيد من الاستيلاء على مشاعرها السّاذجة ؛بحيث صوّر لها بلاده حظيرة كبيرة تعجّ بالحيوانات والوحوش وفي مشهد رومانسيّ قال لها :" أجل، بيتنا على ضفة النيل تماماً، بحيث أني كنت إذا استيقظت على فراشي ليلا، أخرج يدي من النافذة و أداعب ماء النيل حتى يغلبني النوم."(21)، استطاع مصطفى أن يغالطها وتقع في شباكه ، وحين أدركت الأمر(إيزابيلا سيمور) اختارت الانتحار وتركت رسالة تبرّر فعلتها قائلة : " إذا كان في السماء إله، فأنا متأكدة أنه سينظر بعين العطف إلى طيش امرأة مسكينة لم تستطع أن تمنع السعادة من دخول

قلبها، و لو كان في ذلك إخلال بالعرف و جرح لكبرياء زوجٍ، ليسامحني الله و يمنحك من السعادة مثلما منحتني." (22)

أمّا المرأة التي جعلت حياته جحيما ؛ فهي (جين مورس) ، هذه المرأة تزوجته تحت تأثير و إغراءات وتنازلات كثيرة قدمها لها مصطفى سعيد ، ورغم أنّه تمكّن في الأخير من الزواج بها عن مضض ،و غير راضية في قرارة نفسها ، إلاّ أنّها بقيت تلاحقه بعبارات تحطّ من جنسه وانتمائه الأفريقي الأسود ، ومن خلالها عرف شتى أنواع الإهانات تقول له :" أنت بشع، لم أر في حياتي وجها بشِعاً كوجهك. " (23) قدّم لها أثمن الهدايا حتى ترضى لكنه أخفق في استمالتها ؛ أهداها مزهرية ثمينة ، ومخطوطا عربيا نادرا، وسجادا فارسيا من حرير إصفهان دون جدوى ، فهي كالجواد الجموح بإمكان صاحبه أن يقوده إلى النّهر لكن من المستحيل أن يرغمه على الشّرب .وفي الأخير تقابله بأبشع الكلام : " أنت ثور همجي لا يكلّ من الطراد، إنني تعبت من مطاردتك لي، و من جريي أمامك، تزوجني." (24) ، وتتفاقم مأساته وازدادت الهوّة اتّساعا بينهما ، ولم يفلت من لسانها السليط ومن عقدتها الأوروبيّة وبشرتها البيضاء ، مقابل انتمائه الإفريقي الأسود ، ويتحسر هذه اللحظة قائلا : " فكأننا فلكان في السماء اشتبكا في ساعة نحس "(25)، يبدو أنّ تراكم الإهانات والملفوظات الدونيّة ولّدت غضبا كبيرا في نفس مصطفى سعيد فلم يستطع الرّجل التّحكّم في نفسه فأجهز عليها في لحظة غضب وأرداها قتيلة ، انتهت حياة (جين موريس) على يد زوجها المفترض . " فقد أدمنت جسده إدمانا شديدا جعل علاقتها به كالفعل المنعكس الشرطي الذي لا يرتفع إلى الوظائف العليا من الدماغ.. و لذلك لم تكن تنسى غريزيا و على المستوى البيولوجي أنها أوروبية و هو أسود، و أنها زوجته دون أن يكون هو زوجها، فهي قادرة على الاستغناء عنه في أي وقت، و قادرة على الاحتفاظ به كيفما تشاء. و على هذا الأساس حرصت على أن تستثيره و تهينه و تذيقه ألوان العذاب، بقصد تحطيم الإنسان في داخله، و إشعاره دوما بأنه

من عنصر أدنى، و أن الشرق شرق و الغرب غرب، و ليس من اليسير أن يلتقيا " (26) ويستدرج الراوي مصطفى سعيد في حوار له : " أليس صحيحا أنك في الفترة مابين أكتوبر 1922 وفبراير 1923 . في هذه الفترة هذه وحدها على سبيل المثال ، كنت تعيش مع خمس نساء في آن واحد .

بلى

وإنّك كنت توهم كلا منهن بالزواج ؟

بلى

وإنّك انتحلت اسما مختلفا مع كلّ منهن ؟

بلى

إنك كنت حسَن ، وتشارلز ،وأمين ، ومصطفى ، ورتشارد ؟

بلى

ومع ذلك كنت تكتب وتحاضر عن الاقتصاد المبني عن الحبّ لا على الأرقام ؟ أليس صحيحا أنّك أقمت شهرتك بدعوتك الإنسانيّة في الاقتصاد .

بلى " (27) ، اجتهد الطيب صالح طوال أحداث الرواية على تأثيث شخصيته وفق رغباته ومزاجه الخاص ؛ فهي شخصية عربيّة مسلمة محافظة سودانيّة نوبيّة جنوبيّة شرقيّة إفريقيّة يضاف إلى ذلك مثقّفة و متفوّقة علميّا ، إنّ هذ االمجموع من الصفات لا يساوي في حقيقة الأمر رجلا زير نساء أو ماجنا إلاّ في معادلة الكاتب التي رسمها في مُخيلته ، إنّ تلك المُعطيات التي ذكرناها من المفترض أن تساويّ رجلا أنموذجا في الاستقامة والعطاء بغضّ النّظر عن هُويته وانتمائه ، فـ" مشكلة البشرة السوداء هي التي تعطي للتجربة الإنسانية عمقا و عنفاً، بل و تمزجها بنوع خاص من المرارة... و عنصر اللون له أهميته الكبرى، فالبشرة السوداء أكثر من

غيرها هي التي انصب عليها غضب الغربيين، و حقدهم المرير، و هي التي تفنن الغرب في تجريحها إنسانيا قبل أن يكون هذا التجريح سياسيا أو اقتصاديا أو ثقافيا.إن الإنسان الأسود قد عاش قرونا من التعذيب و الإهانة على يد الغرب، و تركت هذه القرون في النفس الإفريقية جروحا لا تندمل بسهولةٍ." (28)

وبدأ الرجل رحلة المتاعب والتّشرّد ، بعد أن قضى عقوبة سبع سنوات في السّجن ، وفي الأخير عاد إلى الوطن إلى السودان واختار قرية ليس قريته ، اشترى أرضا وأقام هناك " اشترى مزرعة و بنى بيتا و تزوج حسنة بنت محمود"(29) ،التي أنجبت له ولدان ، واستطاع أن يكسب احترام الناس وإعجابهم في وسطه الجديد . و هنا يتولى الراوي زمام الحديث ؛ الذي افتكّ صلاحيات واسعة من الكاتب داخل الأحدث الروائيّة ، بغد غياب دام سبع سنوات في لندن وتتسارع الأحداث ؛إذْ يتعرّف الراوي ، وهو إحدى الشّخصيات الرّوائيّة الفاعلة على شخصية مصطفى سعيد المثيرة للجدل ويحكي له مغامراته مع النساء اللندنيّات ، ويتدخل الكاتب هنا ليوجّه الأحداث وِجْهة أخرى ويدفع بالبطل مصطفى سعيد لوضع حدّ لحياته، وذلك حين استدرجه إلى نهر النيل ومات غرقا ؟! حتى وإن استحدث الطيب صالح مُسوغا فنيا يوهم به القارئ العربي ويتمثّل في الفيضان الموسمي لنهر النيل .

يتقمص الراوي دور مصطفى سعيد ؛ ويستأنف مسار حياته " إنني أبتدئ من حيث انتهى مصطفى سعيد." (30) والغريب أنّ زوجته حسنه لا ترضى بغير الراوي زوجا لها رغم كثرة الخطّاب لها فمن خلاله تتجدّد صورة زوجها المتوارية عن الوجود ، بل قاومت المرأة الرجل ابن بلدها الذي أرغمها أهلها على الزواج به وهو (ود الريس)، ولم تفلح ؛ فقتله وتخلّصت منه ومن تبعاته الاجتماعيّة والثقافيّة ثم انتحرت ! إذن يغلب البُعد الإشكالي على الشخصية المركزية حتى بعد انسحابها من الحياة " إنّ الشّخصية الروائيّة أيقونة أدبيّة يتوسّل بها الكاتب التّلميح أو التّصريح

بحقيقته التي تتوزّع بين الصراع الخارجيّ مع المجتمع والعالم والصراع الدّاخليّ مع مبادئه وإنسانيته . " (31)

تعجّ الرواية بأجواء الانتحار، وهذا ما يدفع بفرضية انتحار البطل مصطفى سعيد لكون منْ يخاطر بالذهاب إلى النيل وقت الفيضان ضرب من الانتحار ،زد على ذلك دخل يسبح و هو عارٍ كما ولدته أمّه وهذا دليل على أنّ المكان لا يرتاده الناس لخطورة السباحة فيه والأمر الأخر وقت الظلام بحيث لا يمكن أن يشاهده أحد من أهل القرية . ما أعتقده إنّ الرواية تطرح إشكالية تنبثق من جوهر الثقافة العربيّة المحافظة ذات الأبعاد الشرقية والإفريقية و الإسلاميّة ،ففي إطار هذه المنظومة الثقافيّة الصارمة تنعدم ثقافة الانتحار وتجرّم مُرتكبيها لأنّ هناك وازعا دينيا يردعها ، بل ويتوعّد الله صاحبها بالعقاب يوم القيامة ، إذن أسلوب الانتحار دخيل على النّسق الثّقافي والأخلاقيّ في المجتمعات العربية التي ترفض مثل هذه التّصرّفات التي تحطّ من قيمة مرتكبيها و تنمّ على الهزيمة والخيبة في مواجهة الحياة ، يضاف إلى ذلك أنّ الشخصية المركزيّة التي اضطلعت بدور البطولة تمتلك من الثقافة والمستوى العلمي ما يؤهلها للتجنّب مثل هذه السّلوكات المجافية للواقع والتي تضرّ بصاحبها أخلاقيّا واجتماعيّا ، كما أنّ هذا الأمر يتعارض مع البناء المورفولوجيّ للشخصيّة التي عُرف عنها منذ نعومة أظافرها الإقبال على الحياة والاجتهاد والشغف في طلب العلم الذي غامر من أجله حتى وصل إلى أعلى مراتب النجاح في أوروبا . وهناك مؤشّر آخر له دلالة استعاريّة يدل على أنّ الغرق في النيل هو غرق بين ضفتي ثقافتين متباينتين لدرجة التّصادم هما ، الثقافة الغربية والثقافة الشرقية ؛ أي جنوبيّة وشمالية التي تحتكم إلى منطق (فاعل ومفعول) ففي هذا المفترق الحضاري والثقافي غرق مصطفى في النيل كرمزية هُوياتيّة " أنا في منتصف الطريق بين الشمال والجنوب ، لن أستطيع المُضي ولن أستطيع العودة " (32)

إنّ البُعد الإشكاليّ للشخصية الأساسيّة الذي يطرحه الكاتب ينبثق من منظور الوعي المزيّف المولع بالجسد الأنثوي ذي البشرة البيضاء ؛ والذي لا يملك ضوابط أخلاقية تردعه أو سلوك حضارية تهذّبه ، وما تلك الصيحة التي أطلقها البطل قائلا : " إنني جئتكم غازيا " (33) إلاّ ضرب من النّقص كان من ورائه دوافع سيكولوجيّة مركّبة في مخيال الإنسان الشّرقيّ ، الموبوء بالجنسنة الأوروبيّة وما يمكن أن نخلص إليه هو أنّ الروائي السوداني الطيب صالح تعامل مع أحداث الرواية التي تتجسّد في إشكالية شخصية مصطفى سعيد من زاوية فكرية منحازة تقمّص فيها دور الرّجل الأبيض المشبّع بالقيم الأنتروبولوجيّة للاستعمار ؛ إذ تعامل مع ابن جلدته السوداء وكأنّه بريطاني أبيض أكثر من البريطانيين أو أنّه أحد حفدة كوتشنر الذي جاء يوما ما غازيا للسودان .

الإحـــالات :

(1) (Voir : G.Gennette, Seuils, ed . Seuil ,Paris 1987, P: 7

(2) (ينظر أيضا : محمد الهادي المطوي ، شعرية عنوان كتاب الساق على السياق في ما هو الفارياق ، مجلة عالم الفكر ،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مج28،ع1، الكويت ،يوليو سبتمبر 1999، ص457 .

(3) - سورة الإسراء ،الآية : 1 .

(4) ـ الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار العودة ،ط2 ،بيروت 1969 ص134.

(5) ـ سورة الحديد : الآية 3 .

(6) ـ جريزلدا الطيب ،من هو مصطفى سعيد بطل «موسم الهجرة إلى الشمال» ، جريدة الشرق الأوسط ،أبريل 2007 ،العدد 10361 .

(7) ـ سيدي محمد بن مالك ، جدل التّخييل والمخيال في الرواية الجزائريّة ،دار ميم للنشر ، الجزائر 2016 ، ص13 .

(8) ـ ينظر : مجلة الأقلام العراقية : عدد 12 سنة 1980 .

(9)- الرواية ، م س ، ص22.

(10) - م ن ، ص23 .

(11) - م ن ، ص24 .

(12) - م ن ، ص26 .

(13) - م ن ، ص27 .

(14) م ن ، ص148،149 .

(15) - م ن ، ص62 .

(16) - م ن ،ص72 .

(17) - م ن، ص38

(18) - م ن، ،ص41 .

(19) - م ، ن ،ص111 .

(20) - م ن ،ص141 .

(21) - م ن،ص43 .

(22) - م ن ص141،142 .

(23) - م ن ، ص34.

(24) - م ن ،ص37 .

(25) - رجاء النقاش،الطيب صالح عبقري الرواية العربية ،دار العودة بيروت1984 ، ص. 85 .

(26) - إلياس خوري، تجربة البحث عن أفق، مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية ،ص.25 .

(27) - م ن ، ص56 .

(28) ـ رجاء النقاش،الطيب صالح عبقري الرواية العربية ،دار العودة بيروت1984 ، ص. 81 .

(29) ـ رجاء النقاش،م ن ،ص.80 .

(30) ـ الرواية،م س ،ص135 .

(31) ـ سيدي محمد بن مالك،م س ،ص14 .

(32) ـ الرواية ، م س ،ص154.

(33) ـ م ن ، ص63 .